النظرية التحويلية التوليدية وتطبيقاتها في نصوص السُّنة النبوية

إعداد: **د. أحمد قاسم كسار**[1]

المقدمة:

إنَّ من بين المستجدات على الساحة العلمية النظريات اللغوية الحديثة التي ظهرت في القرن الماضي لتعالج مشكلات وصراعات في غير لغتنا وبلادنا، وبأسلوب محمل بتيارات فلسفية ونفسية واجتماعية منبثقة من أفكار ومذاهب أصحابها.

وقد انساق بعض الباحثين شأنهم شأن غيرهم في الانبهار بتلك الطروحات وتنْزيلها على نصوص اللغة العربية، ولاسيما أن تلك النظريات رفعت القدسية عن النصوص كلها، الأمر الذي جرَّ هؤلاء المستغرِبين لاخضاع نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية وغيرهما من النصوص الأخرى في لغة العرب على طاولة البحث والتفكيك والتشكيك والنقد وخلافه.

ومن إتجاه معاكس تماماً لهؤلاء ظهر من يرفض وبشدة تلك النظريات وأهلها، وإقصاء الضار والنافع منها عن ميدان النصوص الشرعية، والتمسك بالأوجه اللغوية المبثوثة – فيما يخص السنة النبوية– في مصنفات شروح الحديث وغريبه والحواشي وحواشي الحواشي، والاكتفاء بالجهود العلمية التراثية في خدمة السنة النبوية من النواحي جميعها ذات الرؤية العلمية الموثوق بها من علماء علم الحديث الشريف.

وقد رأينا أنَّ من الوسطية العلمية والشرعية أن نفيد مما جاء في بعض تلك النظريات، وأن نأخذ بأحسنها، أو بأحسن ما فيها؛ ولكي نكون منصفين لا بد من القول إنَّ هناك نظريات لا يمكن أخذ شيء منها كالفكر الحداثي وتأثره بالهرمنيوطيقا الغربية التي استخدمت اللغة مع النصوص الدينية لمساءلة الماضي

---

[1] المحاضر بقسم القرآن والحديث، أكاديمية الدراسات الإسلامية، جامعة ملايا – ماليزيا.

بوصفه إشكالية رئيسة.

ومن هذا البحث نهدف إلى الإطلاع على موقع النص النبوي الشريف في النظريات اللغوية الحديثة، أو بعضها، ولتحقيق هذا الهدف لا بد من التعريف بالنظرية التحويلية التوليدية، وأخذ فكرة عنها، ثم بيان ما يمكن الإفادة منها كقيمة معرفية حديثة في تطبيقات معينة على سبيل المثال لا الحصر من الأحاديث النبوية الشريفة.

وقد اعتمدت المنهج التاريخي في عرض النظرية، والمنهج التحليلي لنصوص السنة النبوية عموماً وكيفية التعامل معها، ثم المنهج التطبيقي لشواهد نصية من السنة النبوية لنظرية البحث.

تمهيد: التعريف بالنظريات اللغوية الحديثة وموقف الباحثين المعاصرين منها

إنَّ موضوع النظريات اللغوية الحديثة من موضوعات اللسانيات التي هي مجموعة من العلوم يجمعها هدف واحد، وهو دراسة الظواهر اللغوية لدى الإنسان، وتتناول اللسانيات مجموعة من الوسائل لتحقيق غاياتها تتمثل في (١):

١) الظواهر اللغوية من الأصوات المنطوقة والمسموعة والألفاظ والتراكيب والدلالة.

٢) العوامل المؤثرة على هذه الظاهر، فسيولوجية وظيفية أو نفسية أو بيولوجية أو اجتماعية.

٣) اتباع الأساليب العلمية المعروفة من تجربة جمع أو ملاحظة أو استقراء أو استنتاج القواعد الكلية.

٤) الاستعانة بالعلوم الأخرى كالرياضيات والمنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع.

---

(١) انظر: علم اللغة العام: ٢٩.

٥) الاستعانة بالتقنيات الحديثة كالحاسب الآلي وأجهزة تسجيل الصوت والمختبرات اللغوية المتنوعة.

وقد انبثقت من هذه الوسائل مجموعة من النظريات اللغوية الحديثة يمكن أن نجمل الرئيسة منها فيما يأتي:

أولاً: البنيوية

وهو منهج ظهر في أوربا بعد عام ١٩١٦م في كتاب: (محاضرات في علم اللغة العام) لفرديناند دي سوسير، واهتم بالمنحى الشكلي الصوري الذي اتخذ من اللغة موضوعاً لها، ودراسة اللسان في ذاته ومن أجل ذاته، وبذلك أقصيت في هذه المدرسة سياقات الحال والطبقات المقامية المتنوعة التي ينجز تحتها الخطاب، واستبعدت موضوعات الدلالة التي هي عنصر رئيس في التواصل اللغوي الاجتماعي.

وهذا المنهج مناسب جداً في اللغات الأوروبية بالنظر لما أصاب هذه اللغات من التطور والتحول اللغويين عن الأصول التاريخية في لغاتهم، فأدب شكسبير لا يمكن أن يقرأه الجيل المعاصر إلا بعد ترجمة لنصوصه، بخلاف لغتنا العربية ونصوصها المتوارثة بين الأجيال بحيث أن من يتكلم العربية يفهم كلام الله تعالى وحديث رسوله ﷺ (١).

فهذا المذهب لا يمكن تطبيقه على النصوص العربية ومنها الحديث النبوي الشريف؛ لكون العربية قد ارتبطت حلقاتها التاريخية وظروفها وحياتها الطويلة بسلسلة متماسكة الخصائص والصفات متواصلة التناسل والارتباط بالأصل لوجود النصوص الأصلية المواكبة لحركة العربية خلال تاريخها الطويل ترجع إليها دائماً وتستمد منها، وتقوم ما اعوج من التراكيب والصيغ على أساس المحفوظ من اللغة

(١) انظر: أبحاث ونصوص في فقه اللغة: ٤.

على وفق قوانينها ومعاييرها (١).

ثانياً: التحويلية التوليدية

ظهرت إصلاحات على المنهج البنيوي تمثلت في اللسانيات، حيث أعاد الحديث عن هذا المنهج تشومسكي في الستينات من القرن العشرين تحت اسم النظرية: "التحويلية التوليدية" المكنونة في كتابه: "التراكيب النحوية" (٢).

وهذه النظرية وهذا المنهج يمكن أن أعده وجهاً من وجوه الخلاف النحوي المعاصر، حيث لهذا المنهج نظرة في التعبير النحوي وتسمياته تتماشى عندهم وتطور الزمن وتتعايش بحسب فكرهم مع توسع آفاق الدرس العلمي وعمق تقنياته(٣).

وهذا المنهج ما تمَّ اختياره في هذا البحث من أجل إجراء تطبيقات منه على بعض نصوص السنة النبوية من خلال اختبارات لأساليب حديثية متنوعة، لأنه لا يؤثر على معاني النصوص النبوية ومحتواها بقدر ما سنحصر تأثيره في قضايا الإعراب والصناعة النحوية وحسب، وهذه النظرية تهتم بما تصطلح عليه Slot ويعني: (الموقع) في مدرسة القوالب: (Tagmemics)، وبعبارات المتقدمين هو نفسه موضوع الدلالة (٤).

ثالثاً: التداولية

وهذا هو منهج المنحى الوظيفي بزعامة التداولية pragmatics التي تناولت مستويات مفاهيمية كالبنية اللغوية، وقواعد التخاطب، والاستدلالات، والعمليات الذهنية في الفهم اللغوي، وعلاقة البنية اللغوية بظروف الاستعمال، ولديها حقول معرفية عن اللغة كـ (الفعل الكلامي speech act) و(نظرية المحادثة أو متضمنات القول Les

(١) انظر: أبحاث ونصوص في فقه اللغة: ٤.

(٢) انظر: اللسانيات: ١٩٣.

(٣) انظر: مبادىء اللسانيات: ٣٠٦.

(٤) انظر: اللسانيات: ١٩٣.

(Implicites) و(نظرية الملاءمة Theorie de Ia pertinence) و(القصدية Intentionality) .(١)

وقد أفادت مثل هذه النظريات من الثورات العلمية التي حدثت في بلدانهم، وأخضعوا العلوم الإنسانية إلى المناهج والأفكار المادية، وحين تطالع تطبيق النصوص اللغوية في تلك النظريات تشعر وكأنك تقرأ درساً في الجبر أو الهندسة أو الفيزياء أو الكيمياء باستخدام رموز وأرقام ومخططات تزيد النص تعقيداً وغموضاً بإثقاله بفرضيات ونظريات النص العربي والشرعي في غنى عنها، فتم اختراق الساحة اللغوية بتيارات فلسفية ونفسية ومنطقية وانفتحوا باللغة على علم الاجتماع وعلم الاقتصاد وحتى الرياضيات (٢).

رابعاً: الوصفية

وهو منهج يعتمد على وصف اللغة في فترة زمنية محددة من تاريخ اللغة المستعملة في مكان محدد(٣)، وفي مستوى لغوي محدد (٤).

والمنهج الوصفي هو المنهج الذي اتبعه علماء العربية في جمع اللغة، ولكن يتعذر – اليوم – تطبيقه على العربية المعاصرة بعد أن تم الاستقراء للّغة وقواعدها وثبات قوانينها وأحكامها، وحتى لو فرضنا جدلاً أننا نعيد قراءة النص القرآني وحديث الرسول ﷺ وكلام العرب المنثور والمنظوم فما أظننا سنأتي بجديد بعد الجهود الكبيرة التي بذلها العلماء الأوائل المتقدمون في هذا المضمار (٥).

---

(١) انظر: الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، مسعود صحراوي، مجلة الدراسات اللغوية، مركز الملك فيصل، الرياض، المجلد (٧)، العدد (٣)، رجب – رمضان، ١٤٢٦هـ.

(٢) انظر: اللسانيات واللغة العربية: ٤١.

(٣) انظر: علم اللغة: ٢٦٢.

(٤) انظر: دراسات في علم اللغة: ١٧٤.

(٥) انظر: أبحاث ونصوص في فقه اللغة: ١٨.

المبحث الأول: الدراسة النظرية القيمة اللغوية لنصوص السنة النبوية

تتميز اللغة النبوية بسموها على لغة البشر العاديين، وهي في الوقت نفسه لغة بشر منهم، ولكنها سبكت بنفحات النبوة، وأنوار الوحي، فالنبي ﷺ قد أوتي جوامع الكلم(١)، كما أخبر هو عن نفسه ﷺ فقال: «أوتيت جوامع الكلم»(٢)، مثال وحديثه ﷺ كله حق وصدق لأنه وحي، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾(٣)، ووصفت أم معبد كلامه ﷺ فقالت: "حلو المنطق فصل لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظم"(٤).

ووصف الزمخشريّ كلام النبي ﷺ فقال: "إن هذا البيان العربي كأن الله عزت قدرته مَخَضَه، وألقى زبدته على لسان محمد عليه أفضل صلاة وأوفر سلام، فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفكك الرِّجْل، وما من مصقع يناهزه، إلا رجع فارغ السَّجْل، وما قُرِن بمنطقه منطق إلا كان كالبرذون(٥) مع الحصان المُطهَّم(٦)، ولا وقع في كلامه شيء في كلام الناس إلا أشبه الوَضَحَ(٧) في نُقْبة الأَدْهم(٨)"(٩).
الأَدْهم(٨)"(٩).

---

(١) انظر: الحديث فهماً وتنزيلاً: ٦.

(٢) مسند أحمد، مسند أبي هريرة: ٢/٢٥٠، وإسناده حسن، وله شواهد ترقيه إلى الصحة.

(٣) سورة النجم: ٣-٤.

(٤) المستدرك على الصحيحين: ٣/٥٤٥، وقال عنه الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

(٥) البرذون: يطلق على غير العربي من الخيل، المعجم الوسيط: ١/٤٨.

(٦) المطهم من الناس والخيل: الحسن التام كل شيء منه على حدته فهو بارع الجمال، انظر: لسان العرب، مادة: (طهم): ٩/١٥٤.

(٧) الوضح: بياض غالب في ألوان الشاء قد فشا في جميع جسدها، انظر: لسان العرب، مادة: (وضح): ١٥/٢٢٩.

(٨) الأدهم: الأسود، انظر: لسان العرب، مادة: (دهم): ٥/٣١٨.

(٩) الفائق في غريب الحديث: ١/٩.

ويذهب أبعد من هذا الدكتور عودة خليل أبو عودة فيقول: "إن للأحاديث النبوية الشريفة نوراً يضيء القلب، وطمأنينة تملأ النفس، ونشوة تشرح الصدر، وقناعة ويقيناً يسمو بالعقل وإن كل ذلك يميزها من غيرها من كلام الناس"(١).

هذا وإن فصاحة النبي ﷺ وبلاغته قد عقدت لها أبواب وفصول في كتب السيرة والشمائل، وألفت فيها كتب ودراسات وأبحاث لا يسع المجال لذكرها، وإذا أردت أن استشهد ببعضها فمن ذلك الفصل الرائع الذي عقده القاضي عياض بعنوان: (فصاحة لسانه وبلاغته)، فقال: "وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع، وبراعة منـــزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب، يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منْزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه، وتفسير قوله، ومن تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه"(٢)، من ذلك حديثه ﷺ مع أقحاح البدو وأصحاء العرب بمستوى لغتهم ودرجة مخاطبتهم، كما كان ذلك مع وفد نهد(٣)، فعن علي بن طالب رضي الله عنه أن وفد نهد قدموا على رسول الله ﷺ فيهم طخفة بن زهير(٤) زهير(٤) فقال: أتيناك يا رسول الله من غوري تهامة(١)، على أكوار(٢) الميس(٣)،

---

(١) بناء الجملة في الحديث: ٨٥.

(٢)صحابيّ، كان من أهل الصُّفَّة وقد اختلف في اسمه اختلافًا كثيرًا، انظره في كتب تراجم الصحابة.

(٣) الشفا: ١/١٥٩-١٦٠.

(٤) قبيلة نهد نسبة لنهد بن زيد بن ليث بن سُود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة، إحدى أكبر قبائل قضاعة وأشرسها، ويروى أن عز قضاعه وشرفها في بني نهد، وتعد قبيلة نهد من أهم قبائل جنوب الجزيرة العربية منذ عصور ما قبل الإسلام، والنهد في اللغة: العظيم الخلق من الناس والخيل، يقال رجل نهد، وفرس نهد، انظر: الاشتقاق: ١/١٦.

ترتمي بنا العيس(٤)، نستخلب الصبير(٥) من أرض بعيدة النطاء(٦)، غليظة الوطاء(٧)، قد نشف المُدْهن(٨)، ويبس الجُعْثُن(٩)، وسقط الأملوج(١٠)، ومات العُسلوج(١١)، وهلك الهدال(١٢)، وفاد(١٣) الودي(١٤)، برئنا إليك يا رسول الله من الوثن والعِنن(١٥) وما يُحدث الزمن، ولنا نعمة همل(١٦) أغفال(١٧)، ووقير(١٨) قليل الرِّسْل(١٩)، أصابتنا سنة حمراء(٢٠) أكدى فيها الزرع(٢١)، وامتنع فيها الضرع، ليس

---

(١) غورى بفتح الغين المعجمة والراء وإسكان الواو بينهما: القعر من كل شئ غورى ما انحدر منها.

(٢) الأكوار جمع كور بالضم: الرحل بأدواتها.

(٣) الميس بفتح الميم وإسكان التحتية ومهملة خشب صلب تعمل منه أكوار البعير.

(٤) العيس: النوق البيض مع شقرة يسيرة أو الإبل مطلقاً.

(٥) الصبير: السحاب المتفرق الأبيض.

(٦) النطاء: البعد.

(٧) الغائلة بالغين المعجمة التي تغول سالكيها، أي: يذهب بها ويهلكها لبعده، والنطاء بالكسر: البعيد.

(٨) المدهن بضم الميم والهاء من النوادر التي جاءت على خلاف القياس والقياس بالكسر، وهي: نقرة واسعة تكون في الجبل يستنقع فيها الماء.

(٩) الجعثن: أصل النبات.

(١٠) الأملوج: ورق كالعيدان يكون لضروب من شجر البر.

(١١) العسلوج: الغصن.

(١٢) الهدال: ضرب من الشجر.

(١٣) وفاد: مات.

(١٤) الودي: الغسيل.

(١٥) العنن: الاعتراض يقال عن لي الشيء إذا اعترض.

(١٦) الهمل: المهملة بلا راع لها ولا فيها من يصلحها.

(١٧) الأغفال: جمع غفل، وهي التي لا ألبان لها.

(١٨) الوقير: الشاء براعيها.

(١٩) الرسل: اللبن والرسل ما يرسل منها إلى المرعى.

(٢٠) سنة حمراء: أي سنة جدب.

(٢١) أكدى: انقطع.

لها عَلَل(١) ولا نَهَل(٢).

فقال ﷺ: «اللهم بارك لهم في محضها(٣) ومخضها ومذقها(٤)، واحبس الزمن بيانع(٥) الثمر، وافجر لهم الثمد(٦)، وبارك لهم في الولد»(٧).

ثم كتب معه كتاباً نسخته: «بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى بني نهد، السلام عليكم، من أقام الصلاة كان مؤمناً، ومن آتى الزكاة كان مسلماً، ومن شهد أن لا إله إلا الله لم يكتب غافلاً، لكم في الوظيفة(٨)، ولكم العارض(٩)، والفريش(١٠)، ما لم تضمروا إماقاً(١١)، ولم تأكلوا إرباقاً(١٢)»، فقال عليٌّ رضي الله عنه: "بأبي أنت وأمي يا رسول الله بنو أب واحد ونشأنا في بلد واحد وإنك لتكلم وفود العرب بلسان ما يفهم أكثره"، فقال ﷺ: «إن الله أدبني فأحسن تأديبي، ونشأت في بني سعد»(١٣).

---

(١) العلل: الشراب الثاني.

(٢) النهل: الشراب الأول.

(٣) المحض: الخالص.

(٤) المذق: خلط اللبن بالماء.

(٥) اليانع: المدرك.

(٦) الثمد: الماء القليل.

(٧) أخرجه ابن الجوزي في الحدائق: ١/٢٥٦، كتاب: فضائل نبينا محمد ﷺ، باب: (٣٢) ذكر الوفود على رسول الله ﷺ، وفد نهد (٤)، وبيان غريب ألفاظ هذه الرواية جلها من كتاب: (الفائزون بدعاء النبي ﷺ): ١٤٠.

(٨) الوظيفة: كل ما يقدر.

(٩) العارض: المريضة.

(١٠) الفريش: التي وضعت حديثاً كالنفساء من النساء.

(١١) الأماق: الأنفة والجرأة.

(١٢) إرباقاً: جمع ربق وهو الحبل، والمعنى: ما لم تقطعوا رباق العهد في أعناقكم.

(١٣) أخرجه ابن الجوزي في الحدائق: ١/٢٥٦، كتاب: فضائل نبينا محمد ﷺ، باب: (٣٢) ذكر الوفود على رسول الله ﷺ، وفد نهد (٤).

ومن الكتب المؤلفة في هذا الموضوع كتاب: (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)، لمصطفى صادق الرافعي، وكتاب: (فصاحة الرسول المصطفى وبلاغته) لعادل البدري.

واللغة النبوية لها علاقة بعصره ﷺ فارتباط اللغة بالواقع الاجتماعي أمر لا شك فيه ولا مراء(١)، وهذا فيه حجة على أصحاب علم اللغة الاجتماعي ونظرياتهم ونظرياتهم في هذا الشأن، ويمكن أن أستدل لذلك بجملة من الأحاديث، شملت ألفاظاً لا يعرفها إلا النبي ﷺ، ويجهلها حتى كبار الصحابة؛ لأنها لم تكن معروفة في بيئتهم، ومثاله ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «كانتِ امرأتان معهُما ابناهما جاء الذئبُ فذهب بابن إحداهما فقالت لصاحبتها إنما ذهب بابنك وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك؛ فتحاكمتَا إلى داودَ عليه السلام فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلامُ، فأخبرتاهُ، فقال ائتونِي بالسّكين أشقّه بينهُما، فقالت الصّغرى لا تفعل يرحمُك الله هو ابنها، فقضى به للصّغرى»، قال أبو هُريرةَ: والله إن سمعتُ بالسكين قطّ إلا يومئذ وما كنا نقول إلا المُدْية(٢).

قال ابن فارس: "كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائهم وقرابينهم، فلما جاء الله جلَّ ثناؤه بالإسلام حالت الأحوال...ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت...فالوجه في هذا إذا سئل الإنسان عنه أن يقول: في الصلاة اسمان لغوي وشرعي، ويذكر ما كانت العرب تعرفه، ثم جاء الإسلام به..."(٣)، فلا بدَّ إذن

---

(١) انظر: الحديث فهماً وتنزيلاً: ٦.

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم، صحيح البخاري، كتاب الفرائض، باب: إذا ادعت المرأة ابنا، برقم: (٦٣٨٧)، وصحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب: بيان اختلاف المجتهدين، برقم: (١٧٢٠).

(٣) الصاحبي: ٤٤، ٤٥، ٤٦.

على الناظر في الحديث أن لا يغفل مثل هذا الأمر؛ لهذا يصير العلم بالسياق وواقع البيئة القرشية واليثربية منذ أربعة عشر قرناً، والتي قال فيها النبي ﷺ الحديث أمراً مهماً في معرفة معنى اللفظ الوارد في الحديث.

وأهمية الحديث ترجع إلى أن القرآن يذكر أصول الإسلام بشكل مجمل دون تفصيل، والحديث النبوي هو الذي يفصّل بعضها أحياناً فيبيّن جزئيات الآية، فمثلاً القرآن يذكر الصلاة والزكاة بصورة مجملة مع العلم أنهما من أركان الإسلام، فيقول تعالى: ﴿أَقيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ﴾(١)، فجاءت السنة النبوية بذكر أوقات الصلاة وكيفيتها، كما فصّلت الأحاديث الشريفة كيفية جمع الزكاة وقواعدها وفصَّلت أيضاً كثيرًا من الأمور الاجتماعية والأخلاقية والإنسانية وبهذا كان الحديث النبوي مبيناً للقرآن.

وكان الصحابة رضي الله عنهم يسمعون حديث الرسول ﷺ في حياته، وكان الرسول ﷺ يحثهم على ذلك، ويكرر عليهم الحديث ليحفظوه، ويتأنى في كلامه ليؤخذ عنه، ويتخولهم في النصيحة والموعظة الحسنة، كل ذلك من أجل أن يبلغوا حديثه ﷺ، ويعوه قبل ذلك ويعملوا به، فقد كان الشاهد الحديثي وما يزال مادة لغوية تناولها العلماء بالشرح وبيان الغريب والمشكل، ودخلت الأحاديث الشريفة موضوعات معاصرة كالإعجاز العلمي وغيره.

وإذا كان للقرآن الكريم أثر في اللغة والادب فإن للحديث أثراً فيهما كذلك، ومعلوم أنَّ الحديث لا يبلغ أثر القرآن الكريم لأنه دونه في البلاغة، وإن كان قائله أبلغ العرب قاطبة وأفصحهم، ومن آثار الحديث النبوي أنه كان له أثر مع القرآن الكريم في انتشار اللغة العربية وفي حفظها وبقائها، وكذلك أثر في توسيع المادة اللغوية بما أشاع من ألفاظ شرعية لم تكن تستخدم من قبل هذا

(١) سورة البقرة: ٤٤.

الاستخدام الخاص، وقد أقبل كثير من طلبة العلوم الشرعية وغيرهم على حفظه وشرحه والاستنباط منه.

ومن تأثيره أيضاً نشأة الكتابة التاريخية لا في السيرة النبوية وسننها فحسب؛ بل أيضاً في تراجم المحدثين للحكم لهم أو عليهم فيما نقل عنهم، وهذا هو السبب في أن المسلمين أشد الامم عناية بتواريخ رجالاتهم على نحو ما نعرف في مثل طبقات ابن سعد وأسد الغابة والإصابة والاستيعاب وميزان الاعتدال. فالحديث هو الذي فتح باب الكتابة التاريخية وهيأ لظهور كتب الطبقات في كل فن وهذا غير ما نشأ عنه من علوم الحديث وغير مشاركته في علوم التفسير والفقه، مما بعث على نهضة علمية رائعة.

وإذا كانت الدراسات اللغوية المعاصرة تعج بمفهوم الراوي اللغوي، ويصطلحون عليه بـ (Informant)(١) فإن الدراسات الحديثية أدق من الدراسات اللغوية القديمة والحديثة في موضوع لغة الراوي وأسبق.

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية شواهد حديثية في ضوء النظرية التحويلية التوليدية

ذكرنا في مقدمة البحث أن من بين النظريات التي يمكن عدها وجها من وجوه تحليل النصوص النبوية إعرابياً ضمن الصناعة النحوية النظرية التحويلية التوليدية، وهذه النظرية تقوم على التفريق بين النحو Syntax والقواعد Grammar، ويبتنى التركيب النحوي فيها على البنية السطحية Surface Structure التي تعبر عن الكلمات التي ينطق بها المتكلم والبنية العميقة Deep Structure التي تعبر عن الفكر.

وإنَّ ما انكشف لمؤسس النظرية تشومسكي وجماعته التحويليين في

---

(١) انظر: **مناهج البحث في اللغة**: ٦٨.

مستوى الدلالة للجملة في بنيتها العميقة والسطحية قد انكشفت من قبل لابن هشام وعبد القاهر الجرجاني، ويظهر ذلك في احتكامهم إلى المعنى في تراكيب لغوية متعددة (١).

وقد طبق هذه النظرية بعض علماء العربية المحدثين(٢) على النصوص العربية، وسنأخذ بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر في نحو اللغة وتراكيبها للأحاديث النبوية، وتتعلق هذه النظرية بالمتكلم والمستمع على حد سواء فهما موضوع اللغة في هذه النظرية من خلال رؤيتها لهذا التجانس في الاتصال الكلامي، ومما شجعني على اختيار هذه اللغة هو اهتمامها بالنص اللغوي وربطه بالمتكلم والمستمع، حيث أن بعض النظريات تؤمن بفصل الكلام عن المتكلم، وتتبنى نظرية "موت المؤلف"، في حين أن هذه النظرية تثبت وجود متكلم افتراضياً وإن كان غائباً في الواقع، ولذلك تسمي "الفعل" الكلامي الذي قام به "الفاعل" بأنه إنجاز لغوي، حيق أن هناك فرد أنتج أصوات وعبارات، ومن ثم تقوم هذه النظرية بوصف القدرة اللغوية إن كانت بليغة أو ضعيفة، جيدة أو رديئة، فيها صناعة نحوية أو لحن وأخطاء، ومن هنا سميت تحويلية توليدية التي تحولد القواعد النحوية إلى جمل معربة، وتولد من النحو معاني مفهومة وواضحة.

وفيما يلي بعض الأساليب اللغوية وتطبيقاتها على النصوص الحديثية على وفق هذه النظرية:

١- أسلوب الذم:

حديث: قال رسول الله ﷺ: «بئسما للرجل أن يقول نسيت سورة كيت

---

(١) انظر: نظرية النحو العربي: ٦٤.

(٢) انظر: مقدمة في اللسانيات: ١٥٦، البنية التحتية بين الجرجاني وتشومسكي، خليل عمايرة، مجلة الاقلام: ٨٨.

وكيت، أو نسيت آية كيت وكيت»(١) فجملة: بئسما للرجل أن يقول جملة تحويلية أصلها التوليدي: يقول أحدكم / جملة توليدية تفيد الإخبار المحايد.

فعل + فاعل (مضاف + مضاف إليه).

يقول الرجل: بالتقديم = الرجل يقول = فاعل مقدم لغرض العناية + فعل وبإجراء (ل) كعنصر زيادة، وإضافة (أن) اقتضاء للفعل تصبح الجملة: للرجل أن يقول، وبإجراء (بئسما) كعنصر زيادة لإفادة الذم كما يأتي: بئسما للرجل أن يقول = بئسما ل + فاعل مقدم لغرض التوكيد + أن + فعل = مفعول به مقدم لعنصر التوكيد، مفعول به مقدم لعنصر التوكيد (فاعل + أن + فعل).

٢- أسلوب النهي:

حديث: قال رسول الله ﷺ: «فلا تتبايعوا الثمرة حتى يبدو صلاحها»(٢).

الجملة: فلا تتبايعوا الثمرة حتى يبدو صلاحها / جملة تحويلية أصلها التوليدي: تتبايعون الثمرة / وتفيد الإخبار المحايد.

فعل + فاعل + مفعول به

لكنه لا يريد الإخبار المحايد؛ النهي عن بيع الثمرة حتى يظهر صلاحها، ولتحقيق ذلك أدخل عنصر التحويل (لا) الناهية الجازمة كما يأتي:

فلا تتبايعوا الثمرة حتى يبدو صلاحها

عنصر تحويل يفيد النهي: (فعل + فاعل + مفعول به + قيد مخصص)

فهي جملة تحويلية جرى التحويل فيها بالزيادة، زيادة (لا) الناهية الجازمة؛

---

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل القرآن، باب الأمر بتعهد القرآن، برقم: (٢٢٨): ١/٥٤٤.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب البيوع: ٣/٢٥٣، وصححه الألباني.

لإفادة النهي عن بيع الثمرة حتى تنضج.

٣- أسلوب التحضيض:

حديث: قول النبي ﷺ: «فهلا بكراً تلاعبها وتلاعبك»(١).

الجملة: فهلا بكراً تلاعبها وتلاعبك / جملة تحويلية أصلها التوليدي تلاعب بكراً / مع حذف الفاعل للعلم به.

فعل + كلمة محذوفة من الجملة + مفعول به

وبإجراء عنصر الترتيب بتقديم المفعول به للأهمية والعناية تصبح الجملة:

بكراً تلاعبها ← الأصل: تلاعب بكراً، بكراً ← بالتقديم = بكراً تلاعب بكراً

وبإبدال الظاهر بمضمر ← بكراً تلاعبها = (مفعول به + فعل + كلمة محذوفة من الجملة + ضمير). لكن الحديث يريد الحث على الزواج من بكر لصفات تختص بها من غيرها، وبإجراء عنصر التحويل (هلا) بالزيادة؛ لإفادة معنى الحث تصبح الجملة:

هلا بكراً تلاعبها = عنصر تحويل لإفادة التحضيض (مفعول به مقدم لغرض التوكيد + فعل + فاعل محذوف + ضمير).

عنصر تحويل لإفادة التحضيض (مفعول به + فعل + كلمة محذوفة من الجملة + ضمير). فالجملة تحويلية، جرى التحويل فيها بالترتيب والزيادة والحذف؛ لإفادة معنى الحث على الزواج من البكر.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في النكاح، باب: (١٠)، (١٢٢)، (١٢٣)، حديث: (٥٠٧٩)، (٥٠٨٠)، (٥٢٤٥)، (٥٢٤٧)، ومسلم في الرضاع، باب استحباب نكاح البكر، حديث: (٧١٥).

٤- أسلوب الإغراء:

حديث: قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «عليك بكتاب الله»(١).

الجملة: عليك بكتاب الله.

شبه جملة (جار ومجرور) + ل (اسم مضاف + مضاف إليه)

أصل الجملة التوليدي: كتاب الله عليك / وتفيد الإخبار المحايد، ثم حدث في الجملة تقديم وتأخير لغرض العناية والاهتمام: كتاب الله عليك ← بالترتيب = عليك كتاب الله، وهي جملة خبرية فيها عناية واهتمام؛ لكن الحديث لا يريد الإخبار؛ بل يريد معنى آخر فيه حث وتوكيد على التمسك بكتاب الله؛ لأنه حبل الله المتين، والصراط المستقيم، وبإجراء عنصر التحويل (بـ) كعنصر تحويل بالزيادة للمعنى الذي يريده الحديث وهو تأكيد التمسك بكتاب الله، تصبح الجملة: عليك بكتاب الله/مع تغيير حركة المسند إليه.

شبه جملة (جار ومجرور) + بـ (اسم مضاف + مضاف إليه)

شبه جملة ـ جار ومجرور + (اسم مضاف + مضاف إليه)

٥- أسلوب التنبيه:

حديث: أن المسلمين لما انصرفوا من بدر الى المدينة استقبلهم المسلمون يهنؤهم بالفتح وبسألونهم عمن قتل، فقال سلمة بن وقش: ما قتلنا أحدا به طعم، ما قتلنا إلا عجائز صلعاً، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال:

---

(١) كتاب التاريخ الكبير: ٢٢/٢.

«أولئك يا بن أخي الملأ»(١).

الجملة: أولئك الملأ/جملة توليدية تفيد الإخبار المحايد، وبإضافة عنصر تنبيه لإفادة المخاطب أهمية الملأ، تصبح الجملة: يا بن سلمة أولئك الملأ.

جملة تحويلة جرى التحويل فيها بالزيادة، وللتأكيد على أهمية القوم قدمهم، فأصبحت الجملة:

أولئك يا بن سلمة الملأ / فهي جملة تحويلية بالزيادة والترتيب ←

(مبتدأ + تنبيه يتضمن عنصر تنبيه + منبه مركب + خبر = مبتدأ + تنبيه) عنصر تنبيه + منبه مركب + خبر.

فهي جملة تحويلية لإفادة تنبيه المخاطب أهمية القوم، وليس كما قال سلمة.

٦- أسلوب الاستفهام:

وحديث أبي قتادة أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: «متى توتر؟»، قال: أوتر من أول الليل، وقال لعمر: «متى توتر؟»، فقال: آخر الليل، فقال لأبي بكر: «أخذ هذا بالحزم»، وقال لعمر: «أخذ هذا بالقوة»(٢).

الجملة: متى توتر ؟ / جملة تحويلية أصلها التوليدي:

(مبتدأ + خبر محذوف) ولا يمكن تجسيده، (توتر + كلمة محذوفة من الجملة).

وبإجراء (متى) كعنصر تحويل كما يأتي:

متى (توتر + كلمة محذوفة من الجملة) = عنصر تحويل يفيد الاستفهام (مبتدأ + كلمة محذوفة من الجملة)

فهي جملة تحويلية، جرى التحويل فيها بالحذف والزيادة لإفادة الاستفهام

---

(١) دلائل النبوة، برقم: (١٠٤١): ١٤٧/٣، وأخرجه الهيثمي في المجمع: ١٠/ ٢٤، وقال: وفيه حسين السلولي و لم أعرفه وبقية رجاله ثقات.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الوتر، باب في الوتر قبل النوم، برقم: (١٤٣٤): ٢٦٨/١، وصححه الألباني.

عن الزمان.

الخاتمة

إن هذه الجولة الحديثية اللغوية مع كلام النبي ﷺ أثبتت أنه لغته ﷺ أنها لغة بشر استرضع في بادية بني سعد، ونشأ في أفصح بيئة وأبلغ مجتمع، ثم زاده الله من النبوة وحياً يجري على لسانه، فما من عربي تكلم مثله، فالقيمة اللغوية للحديث النبوي الشريف لا تخفى ولا تنكر، وأنها مادة ثرية بشواهدها للدرس العربي.

وإنّ هذا البحث الذي أجريناه تطبيقياً أثبت لنا ولغيرنا بأن كلامه ﷺ كان نحوياً، جارياً على لغة العرب، فلم يلحن يوماً؛ بل كان أسلوبه إضافة معرفية لفنون البلاغة وعلوم الفصاحة والبيان، والنظرية التحويلية التوليدية التي درسناها في البحث هي نظرية غربية نشأت في غير اللغة العربية وبعيدة عن البلاد العربية، ولكننا أردنا أن نبيّن في هذا البحث بأن كلامه ﷺ صالح للاستشهداد اللغوي في أحدث النظريات الألسنية ومستجدها، وهو ميدان دعوي للتعرف على لغة النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام، وكذلك هدف البحث إلى أن يتعمد مصطلحات هذه النظرية وإجراءاتها اللغوية على نصوص السنة النبوية لكي نحمل حديث النبي ﷺ على أعلى محامل الشرح والبيان، فإذا كان التحويليون والتوليديون يفرقون بين ما يسمى بـ (الجمل المقبولة)، وخلافه: (الجمل غير المقبولة وهي المخالفة للنحو)، فإن تطبيقاتنا على النصوص الحديثية المختارة التي أجريناها على هذه النظرية تؤكد في ضوء أدبيات هذه النظرية أن الإتصال بين المتكلم وهو النبي محمد ﷺ والمستمع المثالي وهو الصحابي أو الصحابية كان في أشد قوته التواصلية فهي جمل ناجحة في هذا الاختبار، حيث أن المقدرة اللغوية للمتكلم ﷺ أثبتت لنا أنه عليه الصلاة والسلام استطاع أن يحوّل المعلومات الذهنية التي كان يوحى بها من عند الله تعالى

إلى أداء منطوق ومسموع وواضح وبيّن، فهو عليه الصلاة والسلام كان في شبه عملية ترجمة كبيرة من لغة السماء إلى لغة الأرض -إن صحَّ التعبير، ومعانيه ﷺ كانت مفيدة لغةً وشرعاً، وكانت تراكيبه النحوية عليه الصلاة والسلام سليمة، وقد استطاع أن يتصرف في التراكيب وطريقة عرضها كما رأينا في الأساليب التي استخدمها في كلامه، فلم يكن كلامه كله أمراً، ولا كله نهياً، ولا كله استفهاماً؛ بل وكان بفصاحة لسانه وبلاغة أسلوبه يحول أسلوب التحضيض إلى عرض، وأسلوب الذم إلى تحذير، والإنشاء إلى خبر، والعكس.

المصادر والمراجع

بعد القرآن الكريم:

١) أبحاث ونصوص في فقه اللغة، د. رشيد العبيدي، مطبعة التعليم العالي، بغداد، ١٩٨٨م.

٢) الاشتقاق لابن دريد، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، ط/٣، د.ت.

٣) بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين، أبو عودة عودة خليل، دار البشير، عمان، ١٩٩٠م.

٤) الحدائق، لابن الجوزي، تحقيق :مصطفى السبكي، دار الكتب العلمية، بيروت–لينان، ط/١، ١٩٨٨م.

٥) الحديث فهماً وتنزيلاً، زوهير بن أحمنه عبد السلام، (٦)، موقع الشهاب للإعلام، د.ت.

٦) دلائل النبوة، للبيهقي، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، د. ت.

٧) سنن أبي داود، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، د.ت.

٨) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، دار الفكر، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

٩) الصاحبي، لابن فارس، تحقيق: السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي– القاهرة، د. ت.

١٠) صحيح البخاري، للإمام البخاري، دار العلوم الإنسانية، دمشق، ١٩٩٣م.

١١) صحيح مسلم، للإمام مسلم، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م.

١٢) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار الفكر العربي، ط/٢، القاهرة، ١٩٩٧م.

١٣) علم اللغة العام، توفيق محمد شاهين، مصر، ١٤٠٠هـ –١٩٨٠م.

١٤) الفائزون بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم، توفيق عمر سيدي، مركز الكتاب للطباعة والنشر والتوزيع، الناصرة، ط/١، ١٩٩٥م.

١٥) الفائق في غريب الحديث، للزمخشري، دار المعرفة، لبنان، ط/٢، د. ت.
١٦) كتاب التاريخ الكبير، للإمام البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ٢٠٠١م.
١٧) لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت– لبنان، ٢٠٠٣م.
١٨) اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج، د. سمير شريف الستيتية، عالم الكتب الحديث، ط/١، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م.
١٩) اللسانيات واللغة العربية، عبد القادر الفاسيّ الفهريّ، منشورات عويدات، بيروت– لبنان، ١٩٨٦م.
٢٠) مبادىء اللسانيات، د. أحمد محمد قدور، دار الفكر– دمشق، ط/١، ١٤١٦هـ–١٩٩٦م.
٢١) مجلة الأقلام، العدد: (٩)، بغداد، أيلول، ١٩٨٣م.
٢٢) مجلة الدراسات اللغوية، مركز الملك فيصل، الرياض، المجلد (٧)، العدد (٣)، رجب– رمضان، ١٤٢٦هـ.
٢٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لأبي بكر الهيثميّ، دار الفكر، بيروت– لبنان، ١٩٩٩م.
٢٤) المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوريّ، تحقيق: محمود المطرجي، دار الفكر، بيروت – لبنان، ٢٠٠١م.
٢٥) مسند أحمد، المكتب الاسلامي، بيروت، ط/٢، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.
٢٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤م.
٢٧) مقدمة في اللسانيات، عاطف فضل محمد، دار المسيرة للطباعة والنشر، عمان– الأردن، ٢٠١١م.
٢٨) مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء/المغرب، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م.
٢٩) نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، د. نهاد الموسى، مؤسسة الرسالة/الشركة المتحدة– بيروت، د. ت.